عبقرية الشيخ محمد رفعت



دكتور

حسام الدين طاهر عبد المنعم

دكتوراه في الآداب - جامعة الإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه

وبعد

فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحب أن يستمع إلى القرآن من غيره، وهو المنزل عليه، ولم يزل المسلمون في كل زمان ومكان مشغوفين بكتاب ربهم، يستمعون إليه وينصتون إلى قرائه، ولم يزل القراء يجودون تلاوتهم بالقرآن ويزينون أصواتهم به.

وفي مصر، نمت دوحة عظيمة ومدرسة أصيلة لتلاوة القرآن الكريم، توالت أجيالها جيلا عقب جيل، تنهل من نبع القرآن فتسقى القلوب الظامئة إلى كلام الله، وتذيقهم حلاوة القرآن الكريم بحلاوة أصواتهم وأدائهم، وقد تفردت مدرسة التلاوة المصرية وتميزت عن سائر أقطار المسلمين، فكان منها شيوخ الإقراء والقراء الذين ذاع صيتهم وتعطرت أرجاء الدنيا بنديّ أصواتهم، واستقرت محبتهم في قلوب الناس، وخلد ذكرهم في الحياة برغم انتقالهم عنها وطول العهد بينهم وبينها.

وعلى رأس مدرسة التلاوة المصرية يبرز الشيخ محمد رفعت، أشهر قراء

القرآن الكريم في مصر والعالم الإسلامي في مطلع القرن العشرين، وأول من قرأ القرآن بالإذاعة المصرية، وأعظم صوت صافح آذان الناس صادحًا بكلام الله عز وجل.

لقد خصه الله بصوت عزيز، لم يعرف الناس شبيها له من بعده، ومنحه بصيرة في القلب بعد أن حرمه نور البصر، وإن من علامات الولاية في العبد أن يسبق إليه عطاء الله قبل أن يجتهد في رضا مولاه، وقد وهب الشيخ صوته للقرآن العظيم، ووقف حياته على خدمته، واستعان بما يصقل موهبته ويزيدها إحكامًا وتميزًا، فنهل من علوم عصره، وتمكن من الآلات التي تعينه على حسن الأداء، حتى أصبحت تلاوته تفسيرًا إشاريًا لمعاني الآيات، ونفحات ربانية تنثال على قلوب مستمعيه وترتفع بأرواحهم إلى معارج القدس الإلهي.

ما أكثر ما كُتب عن القارئ الشيخ محمد رفعت! ولم لا وهو العلم الشامخ في سماء دولة التلاوة القرآنية في مصر وربوع العالم، ولكن لكل محب له ومنصت إلى تلاواته الخالدة تجربته الخاصة التي تعبر عن علاقة من التلاقي الروحي النوراني عبر آيات الله البينات ومعانيه الباهرة.

وفي ذكرى انتقال فضيلة الشيخ محمد رفعت إلى رحمة ربه منذ سبعين عاما آثرت أن أسجل بعض الخواطر التي تدور في إطار التأمل والتحليل لتجربة الشيخ في ميدان التلاوة القرآنية، وهي تجربة عبقرية فذة، لا يكاد

يختلف عليها أحد من المستمعين على اختلاف أذواقهم ومشاربهم.

ولقد كانت سبعون عاما من حياة الأمم كفيلة بأن تمحو من ذاكرتها شخصيات وأحداثا، وأن تنسيها أعلاما سكنوا وجدانها وشكلوا وعيها، ولكن بعض الأشخاص المعدودين لديهم من القدرة على البقاء والخلود ما ليس لكثيرين غيرهم، ولمثل هؤلاء ينبغي أن يتوقف المتأمل لتكون له عبرة في مجريات التاريخ وسننه، وليتخذ منها معيارا لتمييز الأصيل من الزائف، والطيب من الخبيث.

د. حسام الدين طاهر عبد المنعم

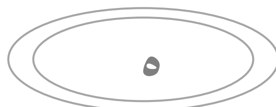
رمضان ١٤٤١هـ

مايو ٢٠٢٠م

مدخل تاريخي

• النشأة

ولد الشيخ محمد رفعت في التاسع من مايو عام ١٨٨٢ بدرب الجماميز بحي المغربلين بالسيدة زينب بالقاهرة، وهو أحد الأحياء الشعبية وسط المدينة العريقة العامرة بعلمائها ومساجدها وحياتها الروحية اليانعة، وفي هذا المكان تفتح وعي الشيخ منذ طفولته على القرآن الكريم، ففي مرحلة مبكرة من عمر الشيخ شاء قدر الله أن يفقد بصره بعد أن كانت عينه مضرب المثل في الحسن والبهاء، وقد كان هذا الحادث الأليم دافعا رئيسيا لأن يسلك هذا الطفل طريق القرآن وأن يشتغل بتلاوته، وساعده على ذلك حافظة قوية وصوت نادر الوجود، فحفظ القرآن وهو دون العاشرة إذ ألحقه أبوه بكتّاب جامع فاضل باشا (أو جامع بشتك) ليحفظ القرآن وليتلقى علوم التجويد والقراءات، ولم يلبث والده حتى توفي تاركا ولده محمد رفعت ليواجه مصيره في هذه الحياة القاسية وليتحمل المسؤولية عن أبيه.



• الانطلاق

بدأ الشيخ رفعت حياته كقارئ للقرآن في مسجد فاضل باشا وهو نفس المسجد الذي حفظ الله في كتابه، ونفس المسجد الذي ظل ملازما للقراءة فيه إلى أواخر حياته، وقد تأثر الشيخ بعدد من كبار القراء والمنشدين المعروفين في عصره، كالشيخ المنيلاوي والشيخ المناخلي والشيخ القهاوي والشيخ علي محمود، ولكن التأثير الأبرز كان للشيخ الكبير أحمد ندا، وهو الذي ينسب إليه تأسيس مدرسة التلاوة المصرية في صورتها التي نعرفها الآن، فقد كان هذا الشيخ صاحب صوت عذب ندي، وهو إلى جانب ذلك كان بارعا غاية البراعة في الأداء الموسيقي للتلاوة، من خلال التمكن التام من المقامات والانتقالات المنسجمة فيما بينها.

ومع مرور الوقت كان صيت الشيخ محمد رفعت يزداد صعودا وانتشارا، وبدأ مسجد فاضل باشا في درب الجماميز يتحول إلى قبلة لقصاد الارتواء من معين التلاوة القرآنية الصافية، وكان ملتقى المريدين صبيحة يوم الجمعة من كل أسبوع، حيث يتجمع المستمعون قبل صلاة الجمعة بعدة ساعات حرصا منهم على الحصول على مكان إلى جوار (دكة) الشيخ، ليقتربوا من صوته الخفيض.

• الإذاعة

عرفت مصر الإذاعات الأهلية قبل انطلاق الإذاعة الحكومية بسنوات، ومع مطلع الثلاثينات رأت الحكومة المصرية أن توقف بث هذه الإذاعات الأهلية التي تكاثرت جدا وغلب عليها الطابع الشخصي لمتلكيها، وشرعت في الإعداد لافتتاح (الإذاعة اللاسلكية للحكومة المصرية)، وأخذت تستقطب لها أعلام الفكر والأدب والفن في مصر لذلك العصر، ووقع اختيارهم على الشيخ محمد رفعت ليكون أول قارئ للقرآن الكريم يفتتح الإذاعة بصوته.

وقد تردد الشيخ رفعت في قبول عرض الإذاعة له بالتلاوة فيها برغم مشاركته من قبل في بعض الإذاعات الأهلية، حيث إنه كان قد أذاع بعض التواشيح الدينية بصوته عبر هذه الإذاعات، لكن هذه هي المرة الأولى التي سيقرأ فيها الشيخ كلام الله تعالى عبر الإذاعة، وقد وقع الشك في قلبه حول حكم هذا العمل وهو يعلم أن بث الإذاعة سيكون متاحا في كل مكان، بما فيها أماكن اللهو والمجون، فأبدى الشيخ رفضه لعرض الإذاعة، وبعد إلحاح من القائمين عليها طلب الشيخ استفتاء الشيخ السمالوطي -أحد كبار علماء الأزهر- حول هذا الأمر، وعندما ذهب إليه الشيخ ليستطلع رأيه أخذ الشيخ السمالوطي بيده ليتحسس جهاز (الراديو) الذي أحضره ليستمع من خلاله إلى تلاوة الشيخ رفعت، وهنا

اطمأن قلبه ووافق على التلاوة بالإذاعة المصرية، وافتتحها بتلاوة ما تيسر من سورة الفتح في مساء ٣١ مايو ١٩٣٤م

وقد كانت هذه الخطوة هي بوابة الخلود لمسيرة الشيخ رفعت في تلاوة القرآن الكريم، ففي الفترة التي افتتحت فيها الإذاعة كان الشيخ قد وصل إلى قمة الذيوع وتربع على عرش التلاوة لكن في إطارها المحلي داخل مصر وربوعها في إطار السرادقات والاحتفالات الدينية التي كانت تقام في المحافظات المختلفة، لكن الإذاعة أتاحت له أن يصل صوته إلى عموم المصريين وأن يمتد عبر موجات الإذاعة إلى أنحاء العالم العربي والإسلامي.

ويحدثنا المعاصرون لهذه الفترة التي قرأ فيها الشيخ في الإذاعة -وهي لا تتجاوز ثمانية أعوام نظرا لتوقف الشيخ عن القراءة في أوائل الأربعينيات بعد إصابته بالمرض- فيصفون اجتماع الناس في كل مكان وتحلقهم حول أجهزة الراديو انتظارا لموعد تلاوة الشيخ وإنصاتهم لها وتفاعلهم معها، وكانت أجهزة الراديو محدودة الانتشار في هذا العصر، فيحدثنا الشيخ أبو العينين شعيشع مثلا أنه كان يجتمع أهل قريته أمام (دوار) العمدة ليستمعوا إلى تلاوة الشيخ، ويحدثنا الشيخ عبد الباسط عبد الصمد بأنه كان يمشي عدة كيلومترات ليصل إلى أقرب جهاز راديو يتيح له الاستماع إلى الشيخ رفعت.

ويجدر بالذكر أن الشيخ كان يقرأ على الهواء مباشرة دون تسجيل مسبق وذلك بناء على رغبة منه، وأن عمره في تلك الفترة كان قد تجاوز خمسين عاما.

• المرض والوفاة

ظل الشيخ على موعد مع أحبابه ومستمعيه عبر موجات الإذاعة يومي الثلاثاء والجمعة من كل أسبوع، إلى جانب التلاوات اليومية في شهر رمضان –ولعل ذلك ما يفسر الارتباط الوجداني بين صوت الشيخ وبين الشهر الكريم- إلى أن أصيب بمرض في الحنجرة أقعده عن التلاوة.

وقد سعى الشيخ إلى التداوي وطلب العلاج فوصف له بعض الأطباء دواء كان يجدي معه لبعض الوقت، لكن حالته الصحية تدهورت ولم يعد الدواء يؤثر فيها، إلى درجة أن نوبات الفواق (الزغطة) كانت تصيبه كلما جلس، وتجبره على البقاء مضطجعا أو مستلقيا حتى يتخفف من بعض آلامها.

وهنا أحس المصريون بافتقاد شيء عزيز في حياتهم بحرمانهم من سماع القرآن الكريم بصوت الشيخ رفعت، وتناقلت الصحف خبر إصابة الشيخ بالمرض فهب المصريون من جميع الطوائف إلى مساعدة شيخهم الحبيب على تجاوز هذه المحنة، ودعا بعض كبار الصحفيين إلى اكتتاب شعبي للمساهمة في نفقات العلاج، فرفض الشيخ رفعت تلقي أي

مساعدات مالية من أحد، واعتبر ذلك مساسا بكرامة قارئ القرآن وأطلق كلمته الشهيرة (إن سادن القرآن لا يهان ولا يدان).

وظل الشيخ صابرا محتسبا طيلة ثمانية أعوام منذ عام ١٩٤٢ إلى أن اختاره الله إلى جواره في نفس يوم مولده التاسع من مايو، في عام ١٩٥٠، ففقدت الأمة الإسلامية بوفاته علما من أعلام القرآن ورمزا من رموز مصر في العصر الحديث، وبكاه أهل الثقافة والرأي ونعاه كبار العلماء والأدباء، ومن ورائهم جموع المصريين والمسلمين في كل مكان وصل إليه صوته صادحا بآيات القرآن الكريم.

الملامح الشخصية

لم تكن الموهبة الفذة التي تمتع بها الشيخ رفعت هي العامل الأوحد في شهرته والتفاف الناس حوله، فقد كان وراءها خلق عظيم وقلب نقي وسريرة طاهرة، وهذه أمور شاعت بين المقربين من الشيخ والمخالطين له من أهل الفضل والمروءة، فقد كان رجلا عالي الخلق سامي النفس، أكثر ما وصف به العفاف والقناعة والإخلاص والتواضع، وهي صفات يندر وجودها في عالم الشهرة بين المبرزين من كل فن ومهنة، فكثيرا ما تستدرج الشهرة أصحابها إلى الرياء والكبر وحب المال والتكالب على الدنيا، ولكن شيخنا كان أبعد الناس عنها، وعاش ومات وهو فقير محتسب، ومن الثابت عنه أنه رفض السفر إلى الخارج لتلاوة القرآن مقابل أجر كبير، وأنه كان قريبا من الفقراء وأهل البلد، يشاركهم مآتمهم وأفراحهم، ويقرأ لهم على (دكة) جامعه الأثير إلى آخر عهده بالتلاوة.

ذكر الأستاذ حسين محمد رفعت رحمه الله في حديث إذاعي مع الأستاذ عمر بطيشة أن مكالمة هاتفية وردت إلى منزل الشيخ رفعت في صباح أحد أيام الجمعة، فرد عليها أحد أبنائه فإذا به الملك فاروق شخصيا

يسأل عن توجه الشيخ إلى جامع فاضل للتلاوة هذا الصباح، فتوجه الابن إلى أبيه ليخبره بهذه المكالمة الخطيرة، فما كان من الشيخ إلا أن أجابه بكل هدوء وثقة بأن يخبر جلالة الملك بأنه سيتوجه إلى المسجد ليقرأ ما تيسر له من القرآن، لم ينتفض الشيخ من مقعده ولم تأخذه جلالة الملوك ولم يتهيب مقامهم، وذلك لأن قلبه موصول بالله مشغول بمناجاته.

وقد أثرت هذه الأخلاق العالية التي تحلى بها الشيخ في كل من استمع إليه وأنصت لتلاوته، حتى من غير العرب ممن لا يفهمون من القرآن حرفا واحدا، لكن لغة القلوب لها أبجديتها الخاصة التي لا تكترث باختلاف اللغات والألسنة، ومن أشهر الأمثلة المتداولة على ذلك قصة الطيار الكندي الذي استمع إلى تلاوة الشيخ رفعت عبر الإذاعة فوقر الإيمان في قلبه وحضر إلى مصر ليشهر إسلامه على يد شيخه الجليل الذي أخذه إلى عالم الهدى بفضل إخلاصه في تلاوة كلام ربه.

لم يكن الشيخ رفعت مجرد قارئ عادي أدى دوره المشكور في خدمة القرآن وتعليمه للناس، بل كان بينه وبين الله حبل موصول، وقد رويت عنه الكرامات الكثيرة والمناقب العديدة، ومنها على سبيل المثال قصة المرأة الصالحة التي أوصت ولدها بعد وفاتها أن يحضر الشيخ محمد رفعت ليقرأ في مأتمها، وعقب وفاتها تهيب الابن تنفيذ وصية والدته

خشية ألا يستطيع الوفاء بأجر الشيخ رفعت، وفي تلك الليلة التي عقد فيها سرادق العزاء كان الشيخ قد فرغ من صلاة العشاء وعاد إلى منزله وطلب من ابنه الأكبر محمد أن يطلق الحصان من العربة لعدم نيته الخروج من المنزل مجددا، وبعد قليل طلب منه أن يجهز العربة مجددا، وأن يصطحبه للخروج، وعندما سأل الابن والده عن الوجهة التي يقصدها أخبره بأن يتوجه إلى إحدى المناطق المجاورة، وعندما وصلت العربة إلى المكان توقف الحصان من تلقاء نفسه أمام سرادق العزاء، لينزل الشيخ ويلتقي بابن المرأة الصالحة ويعاتبه على عدم تنفيذ وصيتها، فيعتذر له الرجل لتخوفه من أجر الشيخ رفعت وهو من هو، فيعاتبه الشيخ مرة أخرى وينكر عليه تفكيره في موضوع الأجر، فهو آخر ما يفكر فيه.

وتشير جميع ملابسات حياة الشيخ إلى أن المادة لم تكن تمثل له شيئا ذا قيمة، وأن الثراء لم يكن من ضمن مخططاته التي يسعى لها، فقد عاش ومات في حي السيدة زينب بين البسطاء من الناس، ولم يكن يقيم في قصر أو يمتلك سيارة فارهة، ولو أراد أن يصل إلى أكثر من ذلك لفعل، بل إنه لم يجد في أواخر عمره نفقات علاجه من مرضه الذي أصابه في أعز ما يمتلك، في حنجرته الذهبية.

ويذكر مؤرخوه أنه كان متصوفا على الطريقة النقشبندية، التي تتميز بكثرة الذكر حتى ينطبع اسم الله على القلب، فكلمة نقشبند تعني النقش

على القلب، وهي الطريقة الوحيدة التي ترجع في أصولها إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ولذلك فهي ترفع شعار الخلة مع الله وعدم التكلف في علاقة العبد بربه.

وقد عاش الشيخ محمد رفعت ثمانية وستين عاما على ظهر هذه الأرض، ومنذ أن قبضه الله ووري تحتها لم يمت ذكره ولم يغب عن الناس صوته.. فانظر إلى الإخلاص حين يعمر القلب، وإلى بركة القرآن العظيم حين تحل بالعبد الصالح، وإلى محبة الله التي ينادي بها الملائكة المقربون على أهل السموات والأرض، فما أعظم هذه المقامات العلية وتلك المنح السنية، وما أحرانا بالوقوف على هذه المعاني واستحضار تلك الإشارات.

ألا إن ما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل

العلاقات الاجتماعية وشهادات المعاصرين

ارتبط الشيخ محمد رفعت بصداقات وعلاقات اجتماعية قوية مع رموز الفكر والأدب والفن والثقافة في عصره، وكان بيته المتواضع منتدى أدبيا وثقافيا عامرا، فكان يتردد عليه جمع من أهل العلم والقراء والأدباء والصحفيين والفنانين، منهم على سبيل المثال: محمد التابعي، فكري أباظة، نجيب الريحاني، بديع خيري، ويذكر الأستاذ محمد عبد الوهاب أنه ارتبط بالشيخ منذ صغره، وأنه كان يجلس تحت قدمه حين يقرأ القرآن، وكانت السيدة أم كلثوم تتردد على منزله، وكان الشيخ ينشد بصوته بعض القصائد والأغاني الدينية.

وإلى جانب المجالس الخاصة في بيت الشيخ كان الملتقى الأكبر لأحبابه ومريديه في جامع فاضل، وفي هذا الجامع العامر كان الشيخ الشعراوي رحمه الله من الحريصين على ملازمة الشيخ والاقتراب منه أثناء التلاوة، وقد اشتهرت كلمة الشيخ الشعراوي في تقييم أشهر قراء مصر في القرن العشرين، فمنهم قمة الأحكام كالحصري، ومنهم قمة الصوت الجميل كعبد الباسط، ومنهم قمة الفن الرائع الجميل كمصطفى إسماعيل، ومنهم جامع ذلك كله وهو الشيخ محمد رفعت.

أما الشيخ أبو العينين شعيشع فقد كان من أقرب القراء صلة بالشيخ،

وأكثرهم إجلالا له، وظل على وفائه إلى شيخه إلى أن لحق به، ومما ذكره عنه أن الشيخ رفعت كان إذا شرع في التلاوة لا تكاد عيناه تتوقفان عن انسكاب الدموع من خشوعه واستحضاره لمعاني الآيات.

ومن طريف تعلق الناس بصوت الشيخ وشغفهم به أن عددا كبيرا من الأقباط كان يحب الاستماع إلى سورة مريم من الشيخ، ويذكر أن الأستاذ نجيب الريحاني كان يؤخر بدء عرضه المسرحي حتى يفرغ الشيخ من تلاوته الإذاعية.

ولم تكن علاقات الشيخ مقتصرة على حدود مصر، ففي الشام كانت بث الإذاعة المصرية يتردد حاملا صوت الشيخ عبر موجاته، وهناك تعلق به شاب نابه وهبه الله جمالا في الصوت وإحكاما في الأداء، هو الشيخ الجليل محمد رشاد الشريف الذي صار فيما بعد إماما للمسجد الأقصى وأحد أشهر قراء العالم الإسلامي، وقد نسج الشيخ رشاد الشريف على منوال الشيخ رفعت وبلغ حدا من الإجادة في تقليده، وقد جرت بينه وبين الشيخ رفعت مراسلات طريفة، أبدى فيها الشيخ الكبير إعجابه بالقارئ الشاب النابه قائلا: إنني أستمع إلى محمد رفعت من فلسطين.

وقد كتب كثير من المعاصرين للشيخ عنه في حياته وبعد وفاته، وقدم كثير منهم شهاداتهم عن مواقف عاشوها مع الشيخ وذكرياتهم معه، يذكر منها ما قصه الشاعر الكبير كامل الشناوي الذي وصف

تجربته الأولى للاستماع إلى الشيخ رفعت في جامع فاضل، معبرًا عن انبهاره البالغ بصوته وخشوعه في الأداء، لدرجة أنه أخطأ التعبير فقال إنه أحس بأن الشيخ يقرأ بصوت الله.

وقال عنه الإمام المراغي شيخ الأزهر: هو منحة الأقدار حين تهادن وتجود، وتكريم منها لنوعنا الإنساني بين المخلوقات، فهو خير من رتل القرآن وخير من تلاه في زماننا وإلي أن يشاء الله.

وقال عنه الأديب "محمد السيد المويلحي" في مجلة الرسالة: "سيد قراء هذا الزمن، موسيقيّ بفطرته وطبيعته، إنه يزجي إلى نفوسنا أرفع أنواعها وأقدس وأزهى ألوانها، وإنه بصوته فقط يأسرنا ويسحرنا دون أن يحتاج إلى أوركسترا".

ويقول عنه الأستاذ "أنيس منصور": "ولا يزال المرحوم الشيخ رفعت أجمل الأصوات وأروعها، وسر جمال وجلال صوت الشيخ رفعت أنه فريد في معدنه، وأن هذا الصوت قادر على أن يرفعك إلى مستوى الآيات ومعانيها، ثم إنه ليس كمثل أي صوت آخر".

ويصف الموسيقار "محمد عبد الوهاب" صوت الشيخ محمد رفعت بأنه ملائكي يأتي من السماء لأول مرة، وسئل الكاتب الكبير "محمود السعدني" عن سر تفرد الشيخ محمد رفعت فقال: كان ممتلئًا تصديقًا وإيمانًا بما يقرأ.

أما الأستاذ "علي خليل" شيخ الإذاعيين فيقول عنه: "إنه كان هادئ النفس، تحس وأنت جالس معه أن الرجل مستمتع بحياته وكأنه في جنة الخلد، كان كيانًا ملائكيًّا، ترى في وجهه الصفاء والنقاء والطمأنينة والإيمان الخالص للخالق، وكأنه ليس من أهل الأرض".

ونعته الإذاعة المصرية عند وفاته إلى المستمعين بقولها: "أيها المسلمون، فقدنا اليوم عَلَمًا من أعلام الإسلام". وفي الشام نعاه مفتي سوريا حيث قال: "لقد مات المقرئ الذي وهب صوته للإسلام"!

مقومات العبقرية

أعتقد أن ثمة ثلاثة مقومات رئيسية بوأت الشيخ محمد رفعت ذلك المحل الرفيع في عالم التلاوة وفي قلوب الناس إلى يومهم هذا:

• أولا: الموهبة

فقد تميز صوت الشيخ محمد رفعت بعذوبة نادرة وجمال ساحر ونغمة أخاذة، وقد تحدث كثير من الموسيقيين عن الطاقات الهائلة التي امتلكها صوت الشيخ رفعت والمساحات الواسعة التي وصل إليها، وقد صنف صوته كواحد من أقوى الأصوات التي عرفها الناس في العصر الحديث، حيث جاء في المرتبة الثانية بعد صوت أم كلثوم، وليست قوة هذا الصوت في جهارته وبلوغه الأسماع عن بعد، ولكن في قدرته على التحكم العجيب في أدائه الصوتي وانطلاقه بين المقامات الموسيقية وانتقالاته السلسلة فيما بينها دون أن يشعرك بتكلف أو نشاز.

وفضلا عن الاتساع الشديد في الإمكانيات الصوتية والقدرات الهائلة على التحكم في الانتقالات الصوتية، فإن خامة الصوت نفسه ليست مما يصافح آذان البشر إلا في النادر من الأصوات، وقد سعى كثيرون إلى تقليد الشيخ رفعت وبلغ بعضهم حدًا كبيرًا من الاقتراب أو المشابهة

لطريقته في التلاوة، لكن أحدًا لم يصل إلى تقليد صوته الحقيقي الذي عرفه الناس في عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي.

وقد حرمنا الاستماع إلى صوت الشيخ في تمام شبابه وذروة عنفوانه، فقد افتتحت الإذاعة وهو في خمسينيات العمر، وجميع ما بأيدينا من تسجيلاته يعود زمنها إلى هذه المرحلة العمرية التي تتراجع فيها بعض القدرات الصوتية للقراء بحكم تقدمهم في السن، ويحق لنا أن نتساءل في عجب: إذا كانت كل هذه الإمكانيات الصوتية الهائلة التي احتفظت بها آلات التسجيل (البدائية) لهذا الشيخ في تلك المرحلة العمرية المتقدمة، فكيف كان هذا الصوت النادر في شبابه؟ لقد كان بحق (قيثارة السماء).

• ثانيًا: التعلم

حرص الشيخ على تدعيم موهبته الفذة بكل ما يخدمها من العلوم والمعارف التي تساعده على تجويد أدائه وصقل موهبته، فمنذ نشأته الأولى أتقن حفظ كتاب الله إتقانا تاما، وظهرت علامات هذا الإتقان في تلاواته الإذاعية التي كانت تذاع على الهواء مباشرة بلا أدنى نسبة خطأ، وإلى جانب الحفظ المتقن كانت الإلمام الكامل بأحكام التجويد وضبط مخارج الأصوات وتحقيق صفاتها، فضلا عن التمكن العميق من علم القراءات القرآنية من خلال التلقي والاستجازة من المشايخ المعتبرين في

هذا العلم الجليل.

ولم يكتف الشيخ بهذه العلوم الضرورية بالنسبة لأي قارئ للقرآن، بل كان له اطلاع واسع في التفسير وهو ما أتاح له التعمق في فهم معاني القرآن والتعبير عنها في التلاوة، كما كان له تمكن راسخ في علم الوقف والابتداء، وهو من علوم القرآن التي تعين القارئ على الاقتراب من معاني القرآني والالتفات إلى بعض أسراره.

لكل ذلك كله لم يرو ظمأ الشيخ وتعطشه إلى مزيد من العلم والمعرفة، فاتجه إلى دراسة المقامات الموسيقية، وحفظ مئات الأدوار والابتهالات والتواشيح الدينية، وكان له شغف كبير بسماع أسطوانات الموسيقى العالمية لكبار الموسيقيين أمثال موزارت وباخ وبتهوفن وفاجنر، وقد اشتهر هذا الأمر عن الشيخ رفعت في حياته وأثار وقتها حفيظة بعض علماء الأزهر الذي كتب مقالا هجوميا ينتقده فيه على سماعه لهذه الأسطوانات، والشيخ لم يخل بضوابط الشريعة ولم يخرج عن حدودها، فقد أوضح أهل العلم أن الشريعة الإسلامية لم تحرم الموسيقى لذاتها، وإنما حرمت بعض المفاسد التي كانت تحوط مجالس الغناء والطرب كشرب الخمر ومجالسة أهل الفسق والمجون. ولا شك أن إتقان الشيخ لعلم الموسيقى وتذوقه له أتاح له قدرات عظيمة في تطويع صوته للتلاوة وبراعة فائقة في توظيف المقامات الموسيقية والانتقالات فيما بينها.

• ثالثًا: الإخلاص

ويقف وراء الموهبة والتعلم سر عظيم، لعله هو السبب الحقيقي في بقاء صوت الشيخ محمد رفعت واستمرارية حضوره بعد سبعين عاما من وفاته، إنه الإخلاص لكتاب الله والتجرد من أهواء النفس وشهوات الدنيا في تلاوته، وإن المنصت لتلاوات الشيخ يستشعر فعلا حقيقة الإخلاص في كل حرف يتلوه من كتاب الله، ويتحقق بمعنى المقولة الذائعة: إن ما خرج من القلب وصل إلى القلب، وإن ما خرج من اللسان لا يتجاوز الآذان.

ملامح العبقرية

• عبقرية الصوت في تصوير المعاني:

من الخصائص الباهرة التي تميز بها صوت الشيخ أنه لا يفقد شيئا من سحره وجماله في جميع مستوياته، فمنذ استهلاله للتلاوة يبدو قراره عجيبا متمكنا، وله حظ وافر من الخشوع والسكينة وحضور القلب، ولا يزال يتصاعد في التلاوة حتى يصل إلى أعلى طبقات الجواب، وقليل جدا من القراء من يستطيع أن يصل إلى هذه الطبقات العالية دون أن يرهق صوته أو يحسن التحكم فيه، ولكن المتأمل لتلاوات الشيخ يجد أنه كان يصل في بعض الأحيان إلى درجة من الارتفاع في الطبقة الصوتية لا تستطيع آلات التسجيل أن تتحملها، ومن ذلك مثلا تلاوته لقوله تعالى (أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي)، وتأمل كيف انطلق صوته في كلمة (ويخرج)، ولاحظ مدى قدرة التسجيل على الاحتفاظ بصوت الشيخ عند هذه الطبقة العالية!

إن صوته أشبه بالتحليق الحر في فضاء واسع، حيث لا قيود تحول بينه وبين ما يريد من فنون التنغيم والانتقالات السلسلة من جواب إلى

قرار.

ولم يكن انتقال الشيخ بين طبقات الصوت يأتي عبثا أو لمجرد الاستعراض، بل كان يخدم معاني الآيات ويساهم في تجلية مقاصدها، فالآيات التي تصاعد فيها صوت الشيخ ووصل إلى طبقات الجواب كانت غالبا ما تحمل معاني (جهرية) إن صح التعبير، وأقصد بها معاني تستدعي الجهر بها وإعلاء الصوت عند تبليغها وتلاوتها، والأمثلة على ذلك كثيرة من تلاوات الشيخ.

ففي الآية التي أشرت إليها يأتي معنى التذكير بنعم الله وتوجيه العباد إلى تأمل دلالتها على الخالق المنعم.

وفي تلاوة خواتيم سورة الأنعام يجهر بقوله تعالى (فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها) وفيه يأتي معنى الترهيب والتحذير من الإعراض عن آيات الله ومقابلتها بالتكذيب.

ويدور في السياق نفسه تلاوته لقوله تعالى من سورة هود (أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون)، إذ يتضمن التحذير من عاقبة الركون إلى الحياة الدنيا وزينتها.

ومن هذا القبيل أيضا تلاوته لقوله تعالى من سورة الفجر (وجئ يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى يقول يا ليتني قدمت لحياتي)، وقوله تعالى من سورة النازعات (فإذا جاءت الطامة الكبرى

يوم يتذكر الإنسان ما سعى وبرزت الجحيم لمن يرى).

وفي قوله تعالى من سورة مريم (ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون، ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه) يبرز معنى التبرؤ من ضلالات أهل الكتاب في عيسى عليه السلام، وإعلان التنزيه الكامل لله عز وجل عن اتخاذ الولد، كما نجد تصاعد صوت الشيخ جليا لنفس هذا المعنى في تلاوته لقوله تعالى من سورة الأنعام (سبحانه وتعالى عما يصفون، بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم). وفي تلاوته لقوله تعالى من سورة المائدة (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا)، تستشعر غضبة الشيخ لربه في انفعاله بالرد على مقالة اليهود الشنيعة، وذلك في تلاوته لقوله تعالى (غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا).

وفي مقابل هذه المعاني (الجهرية) التي تصاعد فيها صوت الشيخ إلى طبقات الجواب العالية، تأتي معانٍ أخرى يحسن فيها الهمس والنزول إلى أدنى طبقات القرار، ومن أوضح الأمثلة على ذلك تلاوة الشيخ لحوار أهل الكهف عقب بعثهم من نومهم، (قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض...) الآيات.

وتلاوته لخطاب موسى عليه السلام لفرعون عقب وصية الله له ولأخيه هارون أن يقولا له قولا لينا، فتأتي الآيات الكريمة (فأتياه فقولا

إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم...) تجسيدا صوتيا لهذا التوجيه الإلهي للرسولين الكريمين.

وتلاوته لقوله تعالى في سورة الإنسان (إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا) فقد تلاها الشيخ رحمه الله بصوت خفيض يكاد يهمس به همسا، فينقل السامعين إلى أجواء الجنة ويصور لهم أهلها وهم يتلقون فيها عطاء ربهم في تحنن ولطف.

وقد يمزج الشيخ في آية واحدة بين صعود وهبوط في درجات الصوت وشدته، بما يناسب معنى كل كلمة يقرؤها منها، ومن الأمثلة على ذلك تلاوته لقوله تعالى من أول سورة النحل (ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون)، وتأمل كيف قرأ (حين تريحون وحين تسرحون).

وانظر إلى تدرج صوت الشيخ وتفاعله مع حالة المتكلم في الحوار التالي بين موسى والخضر عليهما السلام (قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمرى عسرا فانطلقا)، يقرأ ذلك كله متصلا، ويعطي كلام الخضر انفعال الغاضب المعاتب، ويعطي رد موسى -عليه السلام- انفعال المعتذر النادم، إلى أن يقف متهاديا عند النتيجة التي انتهى إليها الحوار (فانطلقا).

ثم انظر إلى التصوير العبقري لمشهد امرأة العزيز ومرادوتها ليوسف

عليه السلام عن نفسه وذلك في قوله تعالى (وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك)، وتأمل كيف عبر الشيخ بصوته عن أفعال امرأة العزيز معطياً لكل فعل منها ما يناسبه من الطبقة الصوتية، فالمراودة وتغليق الأبواب في هذا المشهد القصصي الدقيق من التفاصيل المشحونة بالانفعال والتوتر، ففي المراودة دلالة على تكرار المحاولة وتعددها بهيئات وطرق متعددة، وفي تغليق الأبواب دلالة على مبلغ الاحتياط من افتضاح أمرها وذيوع قصتها، وهذا كله مما يناسبه الارتفاع بطبقة الصوت تعبيرا عن الحركة المتوترة والأحداث المتصاعدة، إلى أن يصل الشيخ إلى قول المرأة (هيت لك)، فينزل بطبقته إلى قرار مفاجئ، ليتناسب مع تلك الحالة التي وصلت إليها المرأة من الخضوع التام والاستسلام الكامل بعد أن استفرغت كل الحيل لاستمالة النبي الكريم إليها.

ووراء التعبير بدرجات الصوت صعودا وهبوطا تظهر عبقرية الشيخ في تطويع صوته ليحمل انفعالات المعاني ونفسيات المتكلمين، فالبشارة والإنذار والغضب والرضا والحزن والسرور والعتاب والملاطفة والشدة واللين، لكل ذلك وغيره ما يناسبه من التطويع الصوتي الباهر.

• عبقرية الأداء في التكرار

كان من هدى السلف الصالح في تلاوة القرآن الكريم أن يقفوا عن عجائبه وأن يحركوا به القلوب، فعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: لا تهذوا بالقرآن هذّ الشعر، ولا تنثروه نثر الدقل، وقفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ولا يكن هم أحدكم آخر السورة.

وكان هذا هو المنهج الذي سار عليه الشيخ محمد رفعت في تلاوته، ولذلك كان التكرار سمة بارزة في طريقته الأدائية، فهو يقف عند المعاني العظيمة لكتاب الله ويكرر تلاوتها ليفتح لها أبواب الفهم والتدبر في آذان مستمعيه، وينقلهم إلى أجواء إيمانية عامرة بأنوار القرآن وتجلياته.

ومن الملاحظ أن الشيخ كثيرا ما كان يقف عند آيات البشارة ويكررها، وهو بذلك يتفق مع طبيعته البكائية الرقيقة، فهو يتعلق بالبشارة تعلق الخائف الوجل من الإنذار، فإذا مر بآية عذاب تصاعد صوته وانفعل أداؤه ليعطي للإنذار ما يستحقه من التصوير الأدائي، وإذا مر بآية رحمة تعلق بها وأطال الوقوف عليها، ولا يزال يكررها حتى يبلغ بالبشارة مبلغها من قلوب المتعطشين إلى رحمة الله وعفوه.

استمع إليه وهو يقرأ ويبشر في سورة المائدة (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)، وفي سورة يونس

(والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم للذين أحسنوا الحسنى وزيادة)، وفي سورة النحل (جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاؤون كذلك يجزى الله المتقين الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون)، وفي سورة الإسراء (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا).

وإلى جانب آيات البشارة كانت للشيخ وقفات مشهورة عند بعض معاني القرآن العظيمة، فمن ذلك تكراره لقوله تعالى في يونس (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) وفي سورة الفتح (إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا)، وفي سورة الطلاق (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا).

• عبقرية الأداء في توظيف القراءات

القراءات القرآنية علم جليل من علوم القرآن، وهي جزء أصيل من التكوين العلمي لأي قارئ للقرآن الكريم، وقد اشتهر عن قراء مصر الأجلاء أنهم كثيرا ما يقرأون القرآن بوجوه القراءات المتعددة لاسيما في تلاوات المحافل، ولاشك أن في تعدد القراءات إثراء لمعاني القرآن وتوضيحا لها، وهو ما تجلى بوضوح شديد في توظيف الشيخ محمد رفعت للقراءات القرآنية في تلاواته، فقد كانت خدمة المعنى القرآني هي الباعث الأساسي له على تعدد القراءات، سواء أكانت القراءة مشتملة على وجه جديد من وجوه المعنى أم لم تشتمل، وفي الحالة الثانية يكون اختيار الشيخ للقراءة إضافة جديدة في سياق التكرار الذي كان من خصائص أدائه، والذي يعد هو الآخر من وسائل خدمته للمعنى القرآني في تلاواته.

ومن أشهر الآيات التي أبدع الشيخ في توظيف القراءات القرآنية عند تلاوتها آية النور (الله نور السموات والأرض)، وقد طوف فيها الشيخ بين أرجاء المشكاة والمصباح والزجاجة والكوكب، وفي كل مرة يأتي بوجه جديد من وجوه القراءة فيها، وكأنه يعرض لتجليات النور الإلهي العظيم في معارض متعددة، وفي كل معرض منها تفيض أنوار القرآن عليه وعلى المنصتين لتلاوته.

ومنها أيضا تلاوته لقوله تعالى (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان

ألحقنا بهم ذريتهم)، وقد كرر الشيخ هذه الآية مستوعبا جميع وجوه القراءة فيها، وأبدع في تنويعاته الأدائية لها حتى كأنه يأتي في كل مرة بآية جديدة.

ومما استحسنه المرحوم الشيخ رزق خليل حبة شيخ المقارئ المصرية من تلاوات القراءات للشيخ رفعت تلاوته لقوله تعالى من سورة النحل: (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره)، حيث كررها بوجوه القراءات الثلاثة، وأعطى لكل وجه ما يستحقه من الوقف والابتداء؛ فالقراءة الأولى بنصب (الليل والنهار والشمس والقمر) وهنا يقف الشيخ ثم يبتدئ بالرفع (والنجوم مسخرات بأمره). والقراءة الثانية بنصب الجميع (الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) فيقرؤها الشيخ موصولة كلها. والقراءة الثالثة بنصب الليل والنهار فقط، ثم الابتداء (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره).

• عبقرية الأداء في الوقف والابتداء

اشتهر الشيخ محمد رفعت باختياره لبعض وجوه الوقف والابتداء لم تشع بين القراء، وبرغم أنه مما تقرر عند أهل العلم أن القراءة سنة متبعة، وإن من آداب التلاوة أن يلتزم القارئ بما حرره علماء التجويد والقراءات من وجوه الوقف والابتداء، فإن المتدبر لكلام الله ووجوه معانيه وقراءاته لا تزال تتكشف له بعض الإشارات اللطيفة التي يمكن للقارئ أن يعبر عنها مستعينا بالوقف والابتداء، دون أن يكون وقفه هذا وجها معتبرا في العلم، وإنما هو أشبه ما يكون بالخاطرة التي تعد من اللطائف المستفادة من معاني الآية.

ومن الأمثلة على ذلك من تلاوات الشيخ وقفه على قوله تعالى في سورة هود (فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا)، فيبرز بوقفه على هذا الفعل ما سكتت عنه الآيات الكريمة في هذه السورة من الحديث عن تعجب إبراهيم عليه السلام من أمر هذه البشارة، إذ اقتصرت الآيات السابقة على بيان موقف امرأة إبراهيم عليه السلام، ثم ذكرت الآيات أن مجادلة إبراهيم للملائكة كانت (في قوم لوط)، ويأتي وقف الشيخ على (يجادلنا) ليعطي موضوعًا جديدًا لهذه المجادلة.

وفي التلاوة نفسها يقف على قوله تعالى (وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت)، وكأنه يحيل الخلاف حول تفسير الآية

والإشكالية حول تحديد الخلود بمدة بقاء السموات والأرض إلى توجيه جديد، إذ تكون الإشارة بهذا الوقف إلى أن خلود السعداء موصول ببقاء الجنة نفسها.

وفي سورة يوسف يقف الشيخ على قوله تعالى (وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت) ثم يبتدئ (وهو من الصادقين) فيجعل العبارة الختامية كأنها حكم مقرر لا مجرد احتمال يفترضه الشاهد المذكور في الآية.

وفي سورة مريم يقف الشيخ على قوله تعالى (يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت)، فيحيل المستمع إلى إشارة باهرة بنفي التهمة عن السيدة البتول، وينتزع هذا الاعتراف من لسان القوم المفترين.

وفي سورة الإنسان يقف الشيخ على قوله تعالى (ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت)، والوقف على فعل الكينونة في هذا السياق كأنه إشارة إلى الخروج من خلاف معروف بين المفسرين حول وجود الجنة بالفعل أو تأخر خلقها إلى يوم الحساب، والراجح عند أهل السنة أن الجنة والنار مخلوقتان بالفعل، ويأتي وقف الشيخ ليدعم هذا الرأي.

وفي سورة الفجر يقف الشيخ على قوله تعالى (وجاء ربك والملك) ثم يبتدئ (والملك صفا صفا..) فيعرض لإشارات لطيفة في معاني الآية، فإشراك الرب والملائكة في المجيء مما يزيد في تهويل الموقف ويبالغ في تعظيمه، أما الاصطفاف فهو من فعل الملائكة خاصة، وربما تسابق إلى

الوهم عند وصل الآية أن الرب جل وعلا يشارك الملائكة في هذا الفعل.

ويقص الشيخ الشعراوي رحمه الله ما حضره بنفسه في جامع فاضل من وقف الشيخ على قوله تعالى في سورة إبراهيم (وآتاكم من كل)، ثم ابتداؤه (ما سألتموه) فتعجب الحاضرون من هذا الوقف ولم يتضح له معناه، فأعاد الشيخ قراءة الآية موصولة بالقراءة التي اختارها (وآتاكم من كلٍ ما سألتموه) ليتضح المعنى وهو أن تكون (ما) نافية، ويكون المقصود أن الله تعالى أعطى عباده من كل النعم التي لم يسألوه إياها، فأعطاهم حتى قبل السؤال، كما أعطاهم بعده.

• عبقرية الأداء في اختيار الآيات

هذه إحدى الملامح الطريفة لعبقرية الشيخ محمد رفعت في تلاواته القرآنية المباركة، فإنه قد يعمد في بعض الأحيان إلى اختيار مواضع بعينها من سور القرآن دون أن يلتزم ترتيب المصحف، وكأنه بذلك يجعل من تلاوته مجلس علم وتدارس للآيات التي ارتبطت بموضوع مشترك، وهو بذلك أقرب إلى ما يعرف بالتفسير الموضوعي الذي يجمع فيه المفسر الآيات المتعلقة بموضوع واحد.

وثمة نموذجان لهذا الملمح الطريف، ففي التلاوة الشهيرة لسورتي الطور والإنسان ينتقل الشيخ من الآيات التي تلاها من سورة الطور والتي تحدثت عن ألوان من النعيم الذي أعده الله لأهل الجنة، ينتقل إلى الموضوع نفسه من سورة الإنسان مستهلا بقوله تعالى (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوا)، ولا يمضي الشيخ في تلاوته إلى آخر السورة وإنما يقف مكررا ومبشرا عند قوله تعالى (عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا).

ومن وجوه الترابط الوثيق بين هذين المقطعين من سورتي الطور والإنسان حديث القرآن فيهما عن الخوف الذي كان عليه أهل الجنة في الدنيا، والذي عبرت عنه سورة الطور في قوله تعالى (قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم)، ثم عبرت عنه سورة

الإنسان في قوله تعالى (إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا فوقاهم الله شر ذلك اليوم).

إن الشيخ هنا بصدد تفسير القرآن بعضه ببعض، وهو أعلى أنواع التفسير الذي تحدث عنها علماء القرآن في أصول هذا العلم الجليل.

وأما النموذج الآخر ففي تلاوة سور النبأ والنازعات والتكوير، ونلاحظ في تتابع هذه السور ما تشترك فيه من الحديث عن اليوم الآخر، وقد انتقل الشيخ من سورة النازعات التي ختمت بالحديث عن (الطامة الكبرى) واختلاف مصائر الناس فيها بين الجحيم والجنة، ثم سؤال الناس عن (الساعة) سؤال المستهين بها المنكر لوقوعها، انتقل بعدها مباشرة إلى سورة التكوير التي عرضت لبعض المشاهد العظيمة التي ستقع في يوم البعث والجزاء، ولم يكن تجاوز الشيخ لسورة (عبس) إلا تحقيقا لهذا المقصد الذي بنى عليه تلاوته، وهي أن تكون مجلسا تفسيريا للقرآن وتوضيحا لبعض آياته ببعض.

تسجيلات الشيخ محمد رفعت

ظل الشيخ يقرأ بالإذاعة منذ افتتاحها عام ١٩٣٤ (وكان عمره وقتها ٥٢ عاما !) إلى عام ١٩٤٢ حيث أصيب وقتها بمرضه الذي أقعده على القراءة إلى وفاته عام ١٩٥٠. وجميع ما نسمعه اليوم من تسجيلات الشيخ راجع إلى هذه السنوات التسع التي كانت تخللها بعض فترات الانقطاع لمرض الشيخ أو لخلاف مع إدارة الإذاعة أو ما شابه ذلك.

توفي الشيخ رفعت وانقطع صوته على الإذاعة، فبدأ جمهوره العريض في الداخل والخارج يطالب الإذاعة بإعادة صوته إلى برامجها، وهنا كان من الممكن أن يغيب صوت الشيخ عن مستمعيه إلى الأبد، لأن الإذاعة لم يكن لديها تسجيلات له، ولكن الله تعالى أراد أن يصل ما انقطع من عطاء الشيخ وأن يظل ذكره يتردد بين الناس إلى ما شاء، فجاءت من صعيد مصر زوجة رجل فاضل من أعيان مصر، كان عضوا في مجلس الشيوخ وله نشاط اقتصادي مرموق، هو المرحوم زكريا باشا مهران، وكان قد توفي قبل الشيخ رفعت بعام واحد، فجاءت زوجته وقدمت إلى الإذاعة المصرية ثروة عظيمة لا تقدر بمال، إنها الإسطوانات التي قام زكريا باشا بتسجيلها للشيخ، والتي لولاها لغاب صوته عن الوجود وظل

ذكرى يتحدث عنها الناس دون أن يسمعوها بآذانهم.

وإلى جانب مجموعة زكريا باشا مهران كان هناك بعض المصادر الأخرى التي احتفظت لنا بتسجيلات الشيخ محمد رفعت، مثل التسجيلات التي سجلها محمد خميس وهو أحد تجار القاهرة الكبار في تلك الفترة، فضلا عن التسجيلات القليلة التي تحتفظ بها الإذاعة نفسها كتلاوة سورة مريم والتسجيل الخارجي لسورة الكهف والذي تم تسجيله في جامع فاضل ويقال إنه كان بحضور النحاس باشا.

كانت حالة هذه التسجيلات بالغة السوء، فعملت الإذاعة على تنقيتها وتهذيبها قدر المستطاع في ذلك الوقت ، وقد بذل مهندسو الإذاعة جهدا عظيما في ترميم هذه التلاوات وإعدادها لتكون صالحة للإذاعة عبر موجات الأثير، فقد كانت بعض الآيات مطموسة أو مبتورة في التسجيل، وقد مرت هذه التسجيلات بعدة مراحل من الترميم، كانت المرحلة الأولى هي التي استعانت فيها الإذاعة بالشيخ أبو العينين شعيشع ليتلو بصوته المواضع التي أصابها التلف من تسجيلات الشيخ، ولكن ما بأيدينا اليوم وما نسمعه من تسجيلات الشيخ لا أثر فيه لهذه المقاطع التي سجلها الشيخ أبو العينين، فقد استطاع مهندسو الإذاعة ترميم هذه التلاوات بالاستعانة بتسجيلات الشيخ رفعت نفسه وذلك عن طريق تركيب بعض أجزاء تلاوات أخرى على التلاوات التالفة، مع مراعاة

اتفاق القراءة والمقام الموسيقي بقدر المستطاع، وهو عمل بالغ الصعوبة.

ولم تزل جهود التنقية تتابع عليها حتى أصبحنا الآن نستمع إلى صوت الشيخ رفعت نقيا بلا أي تشويش كالذي كنا نسمعه في تسجيلاته الإذاعية، وهذه هي المرحلة الثالثة من مراحل الترميم، وبالرغم من أن شركة صوت القاهرة قد أنتجت معظم تسجيلات الشيخ رفعت منذ الثمانينات بهذه الكيفية المنقاة والخالية من التشويش فإن الإذاعة المصرية ظلت تذيع التسجيلات المشوشة إلى بدايات الألفية.

وقد بارك الله في هذه التسجيلات القليلة العتيقة، وكتب لها من القبول ما لم يتحقق لغيرها من عشرات المصاحف المرتلة والمجودة، ولا يزال المسلمون متعلقين بهذه التسجيلات لا يملون سماعها والإنصات إليها، وبرغم قلة هذه التسجيلات وتدني مستوى جودتها الصوتية فقد خصصت لها إذاعة القرآن الكريم -منذ عشرات السنين- موعدا ثابتا لإذاعتها، وصار هذا الموعد جزءا أصيلا من حياة المصريين يبدأون به يومهم وذلك في السابعة صباحا، ويعد الشيخ محمد رفعت هو القارئ الوحيد الذي تخصص له الإذاعة موعدا يوميا على موجاتها.

وبعد مرور كل هذه السنوات على رحيل الشيخ رفعت لا تزال بعض تسجيلاته غائبة عن أسماع محبيه إلى يومنا هذا! فإن تلك الجهود العظيمة التي بذلت في سبيل ترميم تسجيلاته وإتاحتها للاستماع لم تتمكن

من التعامل مع كثير من التلاوات نظرا لسوء حالتها.

ومع ذلك فنحن نرجو من إدارة إذاعة القرآن الكريم والإذاعة المصرية عامة أن تتيح لجمهورها الاستماع إلى التسجيلات النادرة لفضيلة القارئ الشيخ محمد رفعت، والتي لم تذع كاملة ، ربما لما أصابها من التشويش ورادءة التسجيل، ولكن إذا لم يمكن إذاعة هذه التسجيلات عبر موجات الأثير نظرا لما قد يكون أصاب النص القرآني من نقص بسبب التشويش، فلا أقل من أن تتاح عبر المواقع الإلكترونية مع التنويه عن حالتها التقنية، فهذه التسجيلات ليست ملكا للإذاعة أو لشخص بعينه، إنما ملك جميع أحباب الشيخ ومريديه، بل هي جزء من التراث الثقافي المعاصر لمصر في القرن العشرين.

خاتمة

في تحليل التلاوة العظيمة لأول سورة الكهف من تسجيلات الشيخ محمد رفعت رحمه الله

تتميز هذه التلاوة عن غيرها من تسجيلات الشيخ بعدة أمور

أحدها: أن هذه هي التلاوة الوحيدة الكاملة المسجلة خارجيا بمسجد فاضل باشا، ويعود زمن تسجيلها إلى أواخر الثلاثينيات، وأما سائر التسجيلات الخارجية من سورة هود والرعد والإسراء والكهف، فهي مبتورة في بعض الأجزاء التي ترك الزمن آثاره عليها.

ثانيها: أن صوت الشيخ في غالب أجزاء التلاوة كان في قمة الوضوح والقرب من حقيقته، باستثناء الجزء الأول منها والذي ينتهي عند قوله تعالى (نحن نقص عليك نبأهم بالحق)، ويشاركها في هذه الملاحظة تلاوة سورة هود الخارجية التي احتفظت بقدر كبير من حقيقة صوت الشيخ في قمة نضجه. أما الجزء الأول من تلاوة الكهف فقد بدا صوت الشيخ فيه مشوشا نتيجة رداءة آلة التسجيل في الغالب.

ثالثها: أن تفاعل الجمهور مع أداء الشيخ كان قويا للغاية، وقد احتفظت التلاوة بطابع شعبي ظاهر حتى إنها احتفظت ببعض صياح

الأطفال وضجيج الشوارع والسيارات، إلى جانب بعض العبارات التوجيهية التي صدرت عن بعض المستمعين لحث الجالسين على الإنصات والتدبر، كقول بعضهم أثناء شروع الشيخ في تلاوة الآية الكريمة (إذ أوى الفتية إلى الكهف): (بس بس)، وكقول الآخر قبل تلاوة الشيخ مباشرة لقوله تعالى (وترى الشمس إذا طلعت): (اسمع)، والغالب أنه لاحظ حركة الشيخ برفعه يديه إلى أذنيه قبل التلاوة، وقد كانت هذه عادة شائعة عند القراء.

رابعها: أنها تكشف عن التطابق التام بين طريقة الشيخ في تلاواته الإذاعية (بدون جمهور)، وبين طريقته في التلاوة الخارجية وسط جمهور كثيف جدا، لا نجد مثيله في تسجيلاته الخارجية الأخرى، وهذه نقطة مهمة في التعرف على منهج هذا الشيخ الجليل في التلاوة، فهو يقرأ القرآن لتكون قراءته عونا على تدبر كلام الله، لا فرق بين أن يقرأه منفردا أو بين جمهور، وليس لهذا الجمهور أدنى تأثير على تلاوته لكلام الله.

أما عن التحليل الصوتي والأدائي لهذه التلاوة العظيمة فقد استهلها الشيخ بطبقته القرارية الدافئة التي تميز بها عن كثير من القراء، حتى إن الشيخ مصطفى إسماعيل ذكر أن (الدقائق العشر الأولى) من التلاوة هي ملك للشيخ محمد رفعت خاصة، وذلك لما تميز به طبقة القرار لدى الشيخ من جمال وخشوع وروحانية عالية.

ولم يزل الشيخ يتهادى في طبقة الصوت حتى بلغ الحديث عن أصحاب الكهف في قوله تعالى (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا)، فأطلق لصوته العنان ليتناسب مع موضوع الآية التي هي محور التلاوة الرئيسي، وقد كررها الشيخ ثلاث مرات وفي كل مرة اختار وجها من وجوه مد البدل (القصر والتوسط والإشباع) في كلمة (آياتنا) وذلك برواية ورش، وكأنه خطيب فرغ من مقدمة الخطبة ثم شرع في موضوعها.

وقد تفنن الشيخ في تطويع صوته أثناء التلاوة ليتوافق مع معاني الآيات، ويطول المقام لو تتبعنا دقائق التحليل الأدائي للشيخ الجليل خلال هذه التلاوة العظيمة، وحسبنا أن نشير إلى بعض الوقفات البارزة التي تكشف عما وراءها من عبقرية في تصوير المعاني القرآنية والتعبير عنها في دقة أدائية منقطعة النظير.

فمنها: ذلك التدرج التنازلي في طبقة الصوت عند تصوير التجاء الفتية إلى الكهف واحتمائهم به، فالوصول إلى الكهف كان بالنسبة لهم موضع الأمن والسكون، وهنا كان من المناسب أن ينزل الشيخ بطبقته الصوتية إلى القرار (الحنون) عند قوله تعالى (إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا).

ومنها تلك النقلة المتصاعدة إلى طبقة أعلى ليعرض القضية التي من

أجلها خرج الفتية من وطنهم وفروا بدينهم (هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا)، وتدبر ابتداء الشيخ بقوله تعالى (لولا يأتون عليهم بسلطان بين) وما فيه من معاني التحدي والإغراء والتحفيز على هذا الأمر المستحيل.

وفي الآية التالية يلوح فهم الشيخ العميق لذكر الكهف فيها والفرق بينه وبين ذكره في الآية السابقة التي أشرنا إليها من قبل، ففي الآية السابقة كان لجوء الفتية إلى الكهف حكاية عن فعلهم وما ترتب عليه من حصول الأمن والسكينة، أما في الآية اللاحقة وهي قوله تعالى (وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته)، فهي حكاية عن التوجيه الإلهي لهؤلاء الفتية وذلك ما يناسبه الأداء القوي المفعم بالحماسة والعزم وهو ما حققه الشيخ ببراعة.

ثم تستطرد الآيات الكريمة إلى بيان حال أهل الكهف في سباتهم الطويل، وهنا يفاجئنا الشيخ بوقف غريب لطالما تساءلت عن سره ودلالته، وهو وقفه على قوله تعالى (وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت)، ويكرر الشيخ هذه الآية بنفس الوقف مرتين بأداء قوي يقترب من طبقة الجواب.

وبعد تدبر وبحث ظهر لي أن الشيخ أراد بوقفه على قوله تعالى (وإذا غربت) أن يثبت لوقت الغروب ما يحمله لفظ (تزاور)، إلى جانب ما

أسندته الآية إلى هذا الوقت من لفظ (تقرضهم)، ويتضح ذلك باستجلاء الفرق بين الازورار والقرض، فالأول يدل على معنى الميل، والثاني يدل على معنى القطيعة وعدم الاقتراب، وكأن الشيخ يريد أن يشرح معنى الآية ويقول إن الله تعالى صرف عن أهل الكهف أذى الشمس وحرها في وقت طلوعها، وفعل ذلك أيضا في وقت غروبها بالإضافة إلى زوال الشمس عنهم وقطيعتها لهم بسبب الغروب، فقد اجتمع لوقت الغروب أمران أحدهما ميل شعاع الشمس عنهم والآخر زواله تماما واختفاؤه، ويتضح من ذلك أن شعاع الشمس في وقت الغروب يكون أضعف ما يكون وقد عبر الشيخ عن هذه الحالة بصوته العبقري، إذ ابتدأ بقوله تعالى (وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه) وهو يتهادى في رفق، وينساب في لين، ليتمثل المشهد البصري بأداء صوتي عجيب.

ويبدو أن بعض القائمين على إذاعة تلاوات الشيخ الصباحية بإذاعة القرآن الكريم لم يعجبهم وقف الشيخ على كلمة (وإذا غربت)، فتدخل ببعض برامج التعديل على الصوت ووصل قراءة الشيخ للآية فصارت بلا وقف حتى يبلغ (وهم في فجوة منه)، ونحمد الله أنهم تراجعوا عن هذا العبث ولم يستمروا عليه.

وتتجلى في آيات الحوار القرآني قدرة الشيخ الخارقة على تصوير المعاني والولوج إلى نفسيات المتكلمين والتعبير عن مكنون ضمائرهم، وهذا ما

ظهر عند تلاوة الشيخ لحوار الفتية بعد أن بعثهم الله من نومهم الطويل، ومن أظهر ما في أداء الشيخ لهذا الحوار تلاوته لقول قائلهم (فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا)، وحسبك أيها القارئ الكريم أن تستمع إلى أداء الشيخ لجملتي الختام (وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا) لتتجسد لك حالة الخوف والترقب التي تملكت من هؤلاء الفتية والتي ظهرت على حوارهم الذي دار في خفوت وتهامس.

ثم يأتي التكرار في ختام التلاوة وهو سمة أصيلة من سمات الشيخ رفعت في أدائه العبقري، فهو يكرر الآية لينبه المستمعين إلى مزيد من التدبر لمعانيها وإشاراتها، وقد كان تكراره لقوله تعالى (وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها) بمثابة الخلاصة الختامية لتلاوته، والمتضمنة للدرس المستفاد والعبرة المستخلصة من أحداث القصة القرآنية، فلا عجب أن يتفنن الشيخ في تلاوتها وأن يظهر فيها طاقاته الصوتية الهائلة وتمكنه النغمي الفريد.

حقا: أحسنت يا أستاذ!

وقد آن للقلم أن يمسك، وللقلب أن ينصت، وللسان أن يترحم

فاللهم اجمعنا بشيخنا الجليل في ظلال الجنة مع الحبيب الأعظم

والنبي الأكرم، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد